من صفحات مطوية :

أنطاكية وخليج الاسكندرونة
فى الحرب العظمى الأولى

للأستاذ أحمد رمزى بك

ينعم المرء بمناظر رائعة إذا كان على ظهر باخرة تسير على مقربة من الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، إذ تظهر جبال لبنان والعلويين أمام ناظريه وتحتها الروابى متقاربة متشابهة ؛ فإذا جن الليل تبدو أنوار القرى المتناثرة على سفوح الجبال وهى تتلألأ فى الظلام . إنه منظر يوحى لراكب البحر فى ظلمات الليل البهيم شعور الأمن والاطمئنان ، فتزول من نفسه مخاوف البحر ومخاطره . فإن وصلت إلى خليج الإسكندرونة وجدت البحر يغزو الأرض ويبدو هذا الجزء منه كأنه بحيرة تحيط بها الجبال من ثلاث جهات ، ووراءها قمم عالية شامخة كأنها تناطح السماء : هذه جبال اللكام عند العرب وأمانوس عند الفرنجة وطوروس وجبال الكفرة ، كاورطاغى ، عند الأتراك .

ولقد كنت مسافراً مرة فى أواسط الأناضول فبلغت مدينة قيصرية ، وهى التى فتحها ملكنا الظاهر بيبرس ، وركبت القطار منها إلى الشام ، فوقف بنا عند مخرج نفق على جبال طوروس ، وكان على رأسه محطة أشاروا علىّ بالنزول فيها لآخذ منها القطار السريع . من هذه الرابية العالية رأيت البحر ممتداً من بعيد ، وكشفت سهول ولاية أضنة أو كيليكية ، كما تبدو للناظر إليها من نافذة طائرة محلقة فى السماء : قلت هذا هو أول ما تقع عليه أنظار كتائب الزاحفين من الشمال ، وهذا ما رأته جنود الصائفة والحمدانيين وعسكر مصر أيام ابن طولون وبيبرس وقلاوون فى عودتهم من حروب أرض الروم ، بل قل هذا أول مناظر الحياة التى لقيها الصليبيون فى زحفهم على سوريا بعد أيام الويل والحرمان التى ذاقوها فى أرباض آسيا الصغرى .

فإذا انحدرت من مضايق الجبال ودخلت السهل واتجهت إلى الساحل كان أول ما يلفت النظر هذه البحيرة التى تكوّن خليج الاسكندرونة ، لو رآها رجل البحر لقال عنها هذى أكبر مرافىء الشرق ، وتصورها الموئل الطبيعى لمئات السفن ، ولو نظر إليها رجل البر لقال هذا مركز من المراكز الممتازة فى العالم . فهنا التصق الخليج بالأرض وكونا فى التاريخ قطعة واحدة وأصبح لها قصة واحدة : هى قصة تلك البقاع من الدنيا التى لها ذنب واحد هو ما حبتها به الطبيعة وجغرافية الأرض من مزايا .

هذى البقاع ليست كثيرة على الأرض ولكنها خلقت لتكون مسرحا للمشاكل والمعارك والتصادم وتتابع الحوادث والخطوب . إن مثلها كمثل بعض الناس ممن يأتى إلى الدنيا ليثير ضجة بين الخلق من يوم مولده إلى يوم وفاته كأنهم جاءوا إلى الدنيا تحت طالع من طوالع الضجيج أو سوء الحظ ، كذلك هذه الرقعة من الماء والأرض والجبال ، أتراها قد برزت للوجود تحت برج خاص من بروج السماء ، فحكمت عليها الأقدار أن تكون فريسة للطامعين من ذوى الغلبة والسلطان ، وموطناً للحروب والقتال ، وأن يكتب على أهلها تحمل مصائب الدهر من ضيق الحصار ونقص فى الأموال والأنفس ، وتحمل غضب الطبيعة فيما تثيره من أوبئة وزلازل ، وأن يكتب فى سجل القدر لهذه البقعة من الأرض فيقترن اسمها بالعز آناً وتعلو علواً كبيراً حتى تسمو على غيرها من بقاع الأرض ، ثم يلاحقها سوء الطالع فترى الأيام السود وتذوق الويل المرة بعد المرة حينما يطؤها الفاتحون والغزاة ، فتندك صروحها وتفنى بشاشة أهلها وتبكى نساؤها بكاء طويلا فى الليل كما يتحدث بذلك تاريخها فى أكثر من عشرين قرنا من الزمن ؟

وغريب أمر هذه البقعة : تقوم عليها المدنيات المختلفة وتتبادلها الشعوب ، وينطق أهلها بكل لسان ويفنى شعب بعد شعب على أرضها ولكنها تخرج من وسط النكبات والمصائب وهى باقية لن تبيد ، لأن الحياة لا تلبث أن تعود إليها . ولا تزال إلى اليوم إنطاكية وما حولها : ترى أسوارها القديمة وتلمس عظمتها الفانية . تراها صغيرة بجانب ما كانت عليه ، ومع هذا تشعرك بماضيها ومجدها ، وقد يدخل المرء مستهينا بها فيخرج منها

وهو حامل فى نفسه ما يدعو لا كبارها ، إن فيها سراً يجبر الناس على احترامها .

* * *

نعم لقد قدر لهذه البقعة من الأرض أن تبرز خلال العصور الماضية وأن يتحدث عنها الناس من أهل الشرق والغرب ، وسنبذل بعض الجهد لنأتى بشىء من ذكرها فى كل عصر من العصور السالفة وخصوصا ذلك العصر المملوء بالبطولة والكفاح : عصر الحروب الصليبية ، ونذكر ما حولها من حصون الافرنج وما أقيم أمامها من حصون المسلمين وقلاعهم والكتابة فى هذه الناحية من أحب الأشياء إلى من يؤمن بعظمة ماضينا ، ولكن هناك ناحية لاتزال خافية عن قراء العربية هى أهمية هذا الركن من العالم فى الحرب العظمى الأولى ، فقد بقيت منطقة أنطاكية وخليج الإسكندرونة بعيدة عن ميادين القتال ولم تفمرها الحوادث ولذلك لم يشهر اسمها ولم يعلم الناس عنها إلا لما أثيرت مسألتها أمام عصبة الأمم وأخذت تتطور مشكلتها بين فرنسا وتركيا ثم أخيراً بين سوريا وتركيا . .

ولهذه المنطقة تاريخ طويل فى مدة هذه الحرب وما تلاها من الحوادث ، سنعرضه ملخصا ما أمكن راجعين من النهاية إلى البداية :

حينما قامت الحركة التركية وحصلت حكومة أنقرة على الانتصارات الأولى على اليونان . أرسلت وفداً إلى باريس فى بولية سنة ١٩٢١ أخذ يفاوض الفرنسيين فى عدة مسائل ، وفى ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٢١ عقد اتفاق أنقرة الأول وفيه سلمت فرنسا بالحدود التركية التى تبدأ من بياس إلى ميدان اكبس ثم تستمر على شريط سكة حديد بغداد ، وكان من ضمن ما اتفق عليه إقامة نظام إدارى خاص بسنجق الإسكندرونة واعتبار اللغة التركية لغة رسمية فيه .

جاء هذا الاتفاق عقب حرب بين الفرنسيين والأتراك دامت من يناير ١٩٢٠ إلى ١٩٢١ قال عنها الفرنسيون فى كتابهم عن تاريخ الشرق ما يأتى : « إنها حرب مقدسة وقومية اتسمت بالقسوة والعنف اللذين يتصف بهما أهل تلك البلاد وانها وافقت زمن غليان الحركة الكمالية التى استنفرت الأناضوليين فى وجه مشروع يشعر بتفكيك الوطن التركى »

ويتعجب صديقنا الأستاذ ادموند رباط فى كتابه بالفرنسية عن الوحدة السورية ويتساءل « كيف سلم الفرنسيون بعد معاركهم الطاحنة فى كيليكية وخسائرهم فيها بهذه الحدود ؟ ويقول إن فى ذلك سراً سيبقى أمام مؤرخى المستقبل من المعميات التى يجدون الصعاب لفهمها » .

أما نحن فلا نعجب وقد عرفنا النزاع والتنافس بين بريطانيا وفرنسا ، وإنما نتساءل ونقول للكاتب الفرنسى الذى ذكرنا نظريته فى المقالة الأولى : من كان يمثل دور الإمبراطورية الرومانية فى عام ١٩٢١ . بريطانيا أم فرنسا ؟

إن مثل هذه الأمور تأخذ وقتا طويلا لكى نكتشف تفاصيلها وما يلابسها من المعميات ، وقد يطرأ حادث طفيف يتمثل فى طلب احتلال الإسكندرونة وخليجها فينتج عنه أكبر الأمور ويعيد إلى ذكريات السياسيين مسائل ومشاكل بقيت لمدة طويلة طى الكتمان .

وهذا ما حدث فى عام ١٩١٨ ففى أكتوبر سلمت الدولة العثمانية وأمضت هدنة مدروس ، وكانت الجيوش التركية تحتل منطقة أنطاكية وتشرف على خليج الاسكندرونة وبقيت فى حوزتها بعد إمضاء هذه الهدنة ، ولما كانت شروطها تحتم إجلاء الجنود والضباط والقواد الألمان فقد تقرر سفر الجنرال فون ساندرس ومن معه ، وعليه تسلم القائد مصطفى كمال القيادة ، وقد فهم أمرين : الأول أن الهدنة عقد لوقف القتال بين المتحاربين وأن الأراضى التى فى حوزة الأتراك تبقى معهم لحين إمضاء معاهدة الصلح ، والثانى : أن خط الحدود لوطنه هو الذى أثبته الأتراك بقوة السلاح فى آخر معركة دارت مع الانجليز والهنود فى شمالى مدينة حلب عند انسحابهم منها وترتب على هذه المعركة إيقاف الزحف البريطانى على نقطة تبعد ثلاثين كيلو متراً من المدينة(١) .

ويقرر فى مذكراته ومخابرته الرسمية أن هذا الخط من صنع يديه ، ولذلك تمسك به حتى النهاية فى مفاوضاته مع الفرنسيين ، ولم يكتف بذلك بل عارض قبل ذلك الحكومة المركزية حينما

(١) من أغرب تحكم الاقدار أن الأرض التى دارت عليها هذه المناوشة هى التى دارت عليها معركة ١٥١٧ بين المصريين والأتراك والتى فقدت فيها مصر ملك الشام ثم أصبحت ولاية عثمانية بعد ذلك ، ثم تبدأ فيها مقاومة الأتراك بعد هزائمهم لينتهوا إلى حركة التحرير التى أتموها تحت قيادة زعيمهم .

طلب الانجليز السماح لهم باستعمال خليج الاسكندرونة والميناء لتموين جيوشهم المحتلة لمدينة حلب ، وتبادل مع رئيس الوزارة مكاتبات فى منتهى الخطورة ، وكانت هذه الفترة موجهة له فى حياته المقبلة لأنه من تلك اللحظة بدأ يفكر فى تأليف جيش من شراذم الوحدات التى تحت قيادته ، حينما أقنعته الحوادث بأن إنقاذ البلاد يحتم مداومة القتال إلى النهاية .

فالمطالبة بتسليم ميناء الاسكندرونة كان معناه احتلال المنطقة ، وقد أثار هذا الطلب مخاوف الفرنسيين لما سيرد بعد ذلك من تفاصيل فى هـذا البحث ، وأثار قلق القائد التركى الذى فسر احتلال هذه المنطقة كرغبة فى احتلال غيرها من الأراضى وأن هذا الطلب يهدم الشروط المتفق عليها . فلما طلبت منه الحكومة إجابة هذا الطلب أجابها بصراحة :

« أنا لا أتزحزح عن عقيدتى بوجوب تعيين وتحديد التضحية التى يمكن أن تبذلها الدولة بعد هزيمتها » ، وكتب إلى رئيس الوزارة « إن الانقياد إلى البريطانيين فى طلباتهم قبل إزالة ما فى نصوص المعاهدة من إبهام ولبس لا يبقى هناك وسيلة للوقوف أمام أطماعهم » .

كان الفرنسيون على علم بنيات البريطانيين وهم حلفاؤهم طول مدة الحرب ، وكان الأتراك على علم بما يدور حولهم وما يمكن أن يسببه لهم التساهل والإغضاء عن حقوقهم ، والآن وقد نشرت أغلب وثائق الحرب العظمى الأولى ، أصبح من السهل تتبع المركز الخطير الذى لعبته منطقة أنطاكية وخليج الاسكندرونة فى استراتيجية الحرب بين السنوات ١٩١٤ و ١٩١٨ .

وسوف نبدأ من الناحية التركية ثم ننتقل إلى وجهة النظر البريطانية : ففى سنة ١٩١٦ تألفت مجموعة من الفرق أطلق عليها اسم مجموعة الصاعقة « يلدريم » وكانت حلب مركزاً لها وتولى قيادتها المارشال فون فالكنهاين ومعه نخبة من رجال الجيش والبحرية والطيران ، ومن الاطلاع على التاريخ الرسمى الذى نشرته وزارة الحربية التركية فى نشراتها عن تاريخ الحرب ؛ يتبين أن القصـد من تأليف هذه القوة هو السيطرة على ميادين القتال فى فلسطين والعراق ثم حماية منطقة أنطاكية وخليج الاسكندرونة ضد أى هجوم يشنه الحلفاء ويكون القصد منه قطع المواصلات العسكرية وعمليات تموين الجيوش فى أهم نقطة حساسة فى أراضى الامبراطورية العثمانية[1] .

(١) « يلدريم » أركان حربية عمومية تاريخ حرب نعزيانى .

ويؤكد هذا ما كتبه هندنبرج : « لو وفق الانجليز إلى إنزال جنودهم فى خليج الاسكندرونة لفقدت تركيا الحرب نهائياً أو اضطرت إلى الاحتماء فى جبال طوروس » ، وكان قد شبه فى مذكراته هذه المنطقة بالشريان الحيوى لتموين الجيوش التى تقاتل فى العراق وسوريا وفلسطين وقال : « إن مدافع السواحل لم يكن لها وجود » .

وأشار إلى ما قاله أنور باشا « من أن أمله الوحيد هو الايلس العدو حالة الضعف التى عليها خليج الاسكندرونة » .

ولذلك ختم حديثه بقوله « إن قيام الدولة العثمانية أو استمرار الحرب كان مرتبطاً بمصير هذه البقعة ، وإن الضربات التى لقيتها بسقوط بغداد وتحطيم جبهة فلسطين جعل تجمع جيوش الصاعقة ضرورياً ، وألزم منه إسناد قيادة هذه المجموعة إلى قائد ألمانى معروف وهذا ما جعله يوافق على هذا التعيين» . ومن اطلاعك على ذلك يتضح ما مر بمخيلة مصطفى كمال حينما تمسك بشروط الهدنة ولمس فى الإخلال بها رغبة جديدة لاتخاذ سياسة أشد عداء لبلاده ، وقد كان محقاً فى ذلك لأن نيات البريطانيين من ناحية خليج الاسكندرونة لم تكن خافية طول مدة الحرب كما قلنا ؛ فقد ذكرت المؤلفات الرسمية لوزارة الحربية البريطانية عن تاريخ الحرب العظمى[1] ما دار من نقاش بين اللورد كتشنر والجنرال مكسويل فى نوفبر سنة ١٩١٤ بخصوص إنزال حملة بريطانية على خليج الاسكندرونة وتوجيه ضربة قاصمة إلى منطقة أنطاكية ونهاية الخطوط الحديدية فى جبال طوروس حتى يمكن تحطيم مواصلات الامبراطورية العثمانية .

وقد تبين من هذه المحادثات أن احتلال هذه المنطقة قد درسته القيادة البريطانية درساً وافياً ، وكان القصد من إنزال الجنود هو حماية مصر أو منع الحملة التركية الموجهة إلى مهاجمة قناة السويس من إتمام فتح مصر ، وكان هذا المشروع جدياً لدرجة أن نظر إلى الناحية السياسية التى ستنتج عنه وهى قيام ثورات الارمن ووسط قبائل النصيرية والاسماعيليـة وتحريك كل ما يؤدى إلى انحلال الحكم التركى ، وقد عرض كل ذلك بموافقة الأميرالية البريطانية على مجلس الوزراء ، ولـكن كتشنر عاد أمام أسباب عسكرية وسياسية إلى التمسك بضرورة حماية قناة السويس والوقوف موقفاً دفاعياً سلبياً والاكتفاء بتشديد الرقابة والحصار على شواطىء سوريا بأكلها ، وباشرت القيادة

(١) Offrdal-Hicsory of the Wor - Miflasey Oheratens

البريطانية بإرسال الفرق البريطانية والهندية التي صدت هجوم جمال باشا على مصر في فبراير سنة ١٩١٥ .

ثم عادت حملة خليج الاسكندرونة إلى الظهور مرة أخرى ، وكان ذلك في نهاية عام ١٩١٥ حينما فشلت بريطانيا في حرب الدردنيل وقررت إخلاء شبه الجزيرة وسحب جنودها منها فقد جاء كتشنر بصفته وزيراً للحربية إلى ميادين القتال في غاليبولي ومصر ولمس بنفسه سوء الحالة العسكرية قبل الإخلاء وما تحمله من تطورات ومفاجآت وأشار إلى رد الفعل الذي قد يحدث بعد فشل حملة الدردنيل في العالم الإسلامي وإلى وجود عدد من الفرق التركية المدربة على أصول القتال الحديث بعد اشتباكها في معارك الدردنيل ، ثم نظر إلى أن دخول بلغاريا الحرب قد فتح الطريق بين تركيا وألمانيا وأصبح تدفق الأسلحة والعتاد ممكناً ، ولذلك تجدد الخطر مرة أخرى على مصر وهي مركز الزاوية في العمليات الحربية البريطانية ... وجاء التصريح الذي ألقاه أنور باشا أمام مجلس المبعوثين وقال فيه « إن الحملة الأولى على مصر كانت عملية استكشافية تعرضية وسيعقبها حملة ثانية لاسترجاع مصر » ، لتحريك هذه المخاوف .

ولذلك ازداد قلق ماكسويل وصارح وزارة الحربية البريطانية بأن إخلاء الدردنيل سيكون شديد الوطأة على المكلفين بحماية مصر وسيكون أثره بعيداً من الناحيتين السياسية والعسكرية إن لم تبادر بريطانيا بتوجيه ضربة عاجلة إلى الدولة العثمانية . وعاد ليعزز اقتراح كتشنر بضرورة إزالة حملة بريطانية على خليج الاسكندرونة بل ذهب في تحمسه أن عرض على حكومته أن احتلال هذه المنطقة يجب أن يسبق عمليات الإخلاء في الدردنيل .

ورجعت وزارة الحربية إلى دراسة هذه الحملة وقدرت القوات اللازمة بمائة ألف مقاتل وأخذت القيادة العليا مع قيادة الأسطول تضمان الخطط التفصيلية ، واتفق الطرفان على مبدأ الجمع بين المشكلة السورية ومسألة الدفاع عن مصر ، وضرورة تنسيق العمليات الحربية بين قناة السويس وخليج الاسكندرونة .

وعرضت جميع الخطط في الاجتماع الحربي الذي عقده كتشنر في جزيرة مدروس ودعي إليه كبار القواد ، وكان قرارهم على ضرورة احتلال منطقة الاسكندرونة بالاجماع حتى حددت في هذا الاجتماع على الخرائط الأماكن التي اختيرت لانزال الجنود

ولكن هذا المشروع تعرض من الوجهة الفنية العسكرية لانتقاد رياسة أركان الحرب العامة للامبراطورية ، ودارت عدة مناقشات طويلة يجدها الباحث مفصلة في الكتب والوثائق الرسمية ، وفي أثناء ذلك جاءت المذكرة الفرنسية التي قدمها الكولونيل دي بانوس الملحق العسكري بسفارة فرنسا بلندرة ، وهي المذكرة التي قضت على المشروع لتعارضه مع مصالح الفرنسيين إذ جاء فيها إن أي عمل حربي في هذه المنطقة يجب أن يكون باتفاق الحكومتين لأن فرنسا لا تدافع عن مصالحها الاقتصادية فحسب ، وإنما تضع الناحية السياسية والنفوذ الأدبي قبل كل اعتبار في بلاد تعدها بواسطة الاتفاقات الدولية داخلة في مناطق نفوذها

وذهب رئيس وزارة بريطانيا إلى باريس ولما عاد أصدرت الحكومة البريطانية قراراً برفض مشروع الحملة واستبعاد فكرة احتلال خليج الاسكندرونة ، وإن بقيت كل من تركيا وألمانيا تنتظران هذه الحملة حتى نهاية الحرب العظمى وإعلان الهدنة .

ذكر هندنبرج في مذكراته أن أعباء مدة الحرب لم تكن تسمح له بقراءة التقارير التي يرفعها إليه خبراؤه العسكريون فكان يكتفي بالملخصات ولكن لفت نظره ما جاء في أحدها من أن نهاية الحرب سوف تقرر في خليج الاسكندرونة ، وذلك باستدراج العدو إلى معركة في كليس .

قال « كنت أجهل هذا الإسم ، ولهذا كان أول عمل لي هو البحث عنه وقد وجدته اسماً لبلدة صغيرة في شمالي حلب » .

ومن الغريب أن الانتقادات التي وجهها الخبراء البريطانيون إلى مشروع كتشنر ترتكز على افتراض تجمع في هذه الناحية وقالوا إن طبيعة المنطقة بأكملها تساعد على إخفاء قوات كبيرة في أماكن مختلفة وتسهل عمليات الدفاع والمفاجأة .

إن الفكرة التي نظر إليها باستهتار القائد الألماني العظيم كانت من ضمن الأسباب الفنية التي أخرت تنفيذ هذه الحملة .

والآن وقد قامت سوريا تطالب بعودة هذه المنطقة إلى أراضيها نعرض هنا هذه الآراء على المهتمين بمستقبل الشرق وأممه إذ نستخلص منها حقيقة ثابتة هي أن الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط سيتولاه في المستقبل أهله ، وإنه لن يقتصر على المضايق وسواحل اليونان وجزر بحر إيجه بل يرتكز على منطقة الاسكندرونة وأن الدفاع عن وادي النيل كما رأينا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدفاع عن هذه الناحية في السنوات القادمة .

أما ملاحم البروبة والاسلام على هذه الأرض فلها عودة في مقال قريب بإذن الله .

أحمد رمزي